عروض موقعة

طه حسين : جدل الفكر والسياسة

الشلق، أحمد زكريا.
طه حسين : جدل الفكر والسياسة .-
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٤
١٩٢ص ؛ ٢٤سم.
تدمك ٧- ٨٢٠- ٤٤٨-٩٧٧ -٩٧٨

عرض
أسماء الحسينى دهشان
ماجستير (فلسفة إسلامية)
كلية الآداب - جامعة عين شمس

مؤلف الكتاب هو أ.د. أحمد زكريا الشلق، ولد عام (١٩٤٨م)، حصل على درجة دكتوراه الآداب في التاريخ الحديث والمعاصر من كلية الآداب جامعة عين شمس عام (١٩٨١م)، وقد تدرج في السلك التدريسي بالجامعة حتى أصبح أستاذ التاريخ - كلية الآداب- جامعة عين شمس (١٩٩٣م)، ثم وكيل لكلية الآداب لشئون التعليم والطلاب- جامعة عين شمس عام (٢٠٠٦م). بالإضافة إلى كونه أستاذ زائر بعدة جامعات عربية.

ألف عدد من الكتب الأدبية سواء منفردًا أو بالاشتراك مع آخرين، منها: "العرب والدولة العثمانية"، و"تطور مصر الحديثة"، و"حزب الأحرار الدستوريين"، و"رؤية فى تحديث الفكر المصرى". كما شارك فى تأليف بعض كتب وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام (١٩٩٢م).

وتولى أيضًا رئيس وحدة الوثائق بمركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس عام (١٩٩٠م). وكان عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من (١٩٧٢م) وعضو بمجلس إدارتها (٢٠٠٢م)، وعضو اللجنة العلمية بدار الوثائق القومية (٢٠٠٢م)، وعضو وحدة التاريخ والوثائق بمركز الوثائق للدراسات الإنسانية- جامعة قطر (١٩٨٤م).

وقد نال الدكتور أحمد زكريا الشلق عدة جوائز، منها: جائزة البحوث الممتازة لجامعة عين شمس (١٩٨٣م)، وجائزة الدولة للتفوق العلمي في العلوم الاجتماعية (٢٠٠٥م).

أما الشخصية الرئيسية التى يناقش الكتاب مبادئها وأفكارها، فهى شخصية عميد

الأدب العربى الدكتور طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م)، ولد فى صعيد مصر، فقد بصره في السادسة من عمره نتيجة الفقر والجهل، تلقى دروسه فى كُتاب القرية ثم انتقل إلى الأزهر عام (١٩٠٢)، فانتقد طريقة تدريس مشايخه، فانتهى الأمر بطرده من الأزهر، فلجأ إلى الجامعة المصرية الوليدة، وحصل منها على درجة الدكتوراه الأولى فى الآداب سنة ١٩١٤ عن الأديب والشاعر: أبى العلاء المعرى، وسافر إلى فرنسا وحصل فيها من جامعة السوربون على درجة الدكتوراه عن "ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية". عاد من فرنسا سنة (١٩١٩)، وتم تعيينه أستاذًا في قسم اللغة العربية، وفى عام ١٩٣٠ أصبح عميدا لكلية الآداب. وفى سنة ١٩٥٠ أصبح وزيرًا للمعارف في الوزارة الوفدية، وأسس لشعاره الشهير (التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن). ومن أهم أعماله كتاب "الأيام" وه سيرة ذاتية له، و"فى الشعر الجاهلى" – الذى أثار عاصفة من ردود من الفعل المعارض، وله أعمال قصصية (دعاء الكروان- شجرة البؤس – المعذبون فى الأرض)، وأعمال نقدية (حديث الأربعاء- من حديث الشعر) وفكرية (مستقبل الثقافة فى مصر)، فضلا عن بعض الأعمال المترجمة.

يتحدث المؤلف فى مقدمة الكتاب أن طه حسين لا يزال حيًا بيننا بما كتب فى حياته، وبما نقرؤه ونفسره، ونستكشف مراميه وأبعاده، وبما نوافقه عليه ونتعلم منه، أو نختلف معه ونتجاوزه .. لقد صار تراث الرجل جزءًا أصيلاً من ثقافة هذا الوطن وضميره.

ولم يكن هذا أول كتاب خاص عن طه حسين، يتناول فيه المؤلف طه حسين وأهم أعماله وأفكاره، فقد قام بمراجعة وإعداد مجموعتين من مقالات طه حسين السياسية، بجانب اشتراكه مع د. محمد صابر عرب فى تحقيق ودراسة جزأين يضمان أوراق طه حسين ومراسلاته، وقد تحدث عنهما بالتفصيل فى الفصل السادس فى كتابه الذى نعرض له هنا، والكتب السابقة نشرتها دار الكتب والوثائق القومية المصرية.

وكتاب "طه حسين : جدل الفكر والسياسة" يضم بين دفتيه دراسات، نُشر بعضها فى مجلات، اختار د.أحمد لها هذا الاسم الجامع، على اعتبار أنها تتناول ملامح من سيرة طه حسين السياسية والفكرية، محاولة تبين رؤاه واتجاهاته من خلال كتاباته ومواقفه العلمية، وكيف اصطدمت السياسة بمواقفه الفكرية، وكيف واجه أزمة السياسة مع العقل وحرية الفكر.

تتناول الفصول الثلاثة الأولى، في خط تاريخي متواصل، طه حسين سياسيًا، منذ أن بدأ يتشكل وعيه العام مع نهاية العقد الأول من القرن الماضي، وحتى أصبحت له مواقف وأدوار مشهودة، كاتبًا وإداريًا ووزيرًا. أما الفصلان الرابع والخامس، فقد

اختص أحدهما بدراسة موقف عميد الأدب العربي من الغرب، وكيف وإلى أى مدى تأثر بنموذجه الحضاري، بينما تناول الفصل التالى دراسة لموقف طه حسين من مسألة الهوية والوجهة الحضارية التي ينبغي لمصر أن تتجه إليها، وذلك من خلال قراءة مختلفة لكتابه المهم "مستقبل الثقافة فى مصر، أما الفصل السادس والأخير، فقد تناول مراسلات طه حسين وأوراقه الخاصة التى قدمت شهادات وثائقية للتاريخ الثقافي لمصر المعاصرة.

يتحدث المؤلف في الفصل الأول عن مشوار طه حسين وآرائه فى السياسة حتى (١٩٣٢م) والتي ذكرها أولا في مقالاته صحف الحزب الوطني العديدة ، والتي كانت لها شهرة واسعة صحف مصر الفتاة والشعب والحكم ، كما ظهر ذلك في شعره الوطني الذي حاول فيه أن يعبر عن آماله وآمال وطنه في الاستقلال والحرية والمطالبة بالدستور والحكم النيابي، وكانت هذه هي مطالب الحركة الوطنية المصرية. ويلاحظ أن طه حسين فى قصائده السياسية لم يكن متطرفًا يدعو الى الثورة ، وإنما كانت دعوته سلمية ذات طابع اخلاقي .

لم ينضم طه حسين إلى (حزب الأمة)، وإنما كان مجرد أحد الكتّاب الذين وجدوا في صحيفته وفكرها التحررى سبيلاً ووسيلة لنشر مقالاتهم، ولم يهتموا بسياسة الحزب، وإنما انصبت كتاباتهم على الدراسات الأدبية والاجتماعية التى تتفق بشكل عام مع خط الحزب الإصلاحي.

وبالرغم من اقتراب طه حسين فترة من شبابه من الحزب الوطنى (١٩٠٩- ١٩١٢م) بتأثير الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير جريدة اللواء ولغرض النشر أتاحها له، إلا أن طه حسين بحكم تطلعاته الفكرية كان أميل الى حزب الأمة على وجه العموم، ليس باعتباره حزبًا سياسيًا، وإنما لكونه يضم لفيفا من الكتاب، اتسعت آفاقهم لقناعاته وتوجهاته الفكرية، فجذبه المناخ الفكرى لا الحزبي فهذا المناخ المبشر بالأفكار التحررية والمساس نحو تجديد الفكر السياسي والاجتماعي هو المجال المحبب للكاتب الشاب، ومن هنا ازداد ارتباطه به خاصةً بعد عام (١٩١٢م)، وقد صار طه حسين أكثر نضجًا وصاحب قلم ورأي، لذلك راح يسهم بكتاباته فى هذا المناخ عن قناعة تامة، دونما ضرورة لأن يحبس نفسه فى الإطار التنظيمي أو السلوك السياسي لحزب الأمة.

عاد طه حسين بعد حصوله على الدكتوراه وقيام ثورة (١٩١٩م)، مؤمنًا بالثورة ، ومؤمنًا أيضًا بأن عبئا خطيرًا من أعبائها سيقع على عائق العلماء والمثقفين، لقد كان يقدر أن الساسة الذين سيقودون الثورة سيختلفون فى يوم قريب أو بعيد ، ويعتقد أن المفكريين والعلماء ينحازوا إلى حزب من الأحزاب. ولن يكونوا كعامة الناس

الذين يقادون ولا يقودون، ولم يكن يقدر أنه سيشارك في السياسة من قربه أو بعده على أنه لم يمضِ فى مصر غير شهور قليلة حتى تبين أنه كان واهمًا، وأن العلماء والمفكرين ناس من الناس يتأثرون بالجماعات التى يعيشون فيها .. بل قد يرون الخطر ويعمدون إليه متابعين للجماعات التى يذهبون مذهبها . وما إن قد وجد طه حسين نفسه ضمن هؤلاء الناس، ينحاز لما ينحاز إلية هؤلاء أو أولئك.

وعندما تفاقم الخلاف بين سعد زغلول وعدلي يكن وازداد انقسام الأمة وتحزبت البلاد ، وراح يكتب عن القول : "بأن لا زعيم إلا فلان" أمر مرفوض لأنه فيه مصادر لأصحاب الآراء الأخرى، ورغم أن طه حسين كان يدرك أنه بهذا الموقف سيجر سخط الجماهير عليه، ولكنه كان يكره الطغيان في شتى صوره حتى ولو كان طغيان الشعوب . وانحاز طه حسين - بشكل غير مباشر - لعدلي يكن ولحزبه "الأحرار الدستوريين "، وقبل أن يشارك صفوة مثقفي الحزب في تحرير صحيفة الحركة السياسية، فكتب فيها مقالاته السياسية والأدبية. وبالرغم من تعيينه فى الجامعة المصرية وانشغاله بهذا العمل الجديد، ولكنه لم ينقطع تمامًا عن كتابة المقالات السياسية، وإن كانت قليلة، خاصةً وأن حزب أصدقائه، حزب الأحرار الدستوريين، قد بدأ يغير من سياسته حينذاك هو الوفد محور الفصل الثاني .

ويتحدث الفصل الثاني عن طه حسين ومشاركته فى الحياة السياسية، فخلال الفترة التى أعقبت أزمة كتاب " في الشعرالجاهلى " لم يشارك طه حسين في السياسة بمعناها المباشر، لما لاقاه منها من عنت وبلاء، وبحكم أستاذيته في الجامعة التي تحول دون الانخراط في العمل مع الأحزاب السياسية وصحفها باعتباره موظفًا حكوميًا وتركزت كتاباته خلال هذة الفترة (١٩٢٧- ١٩٣٢م) حول الأدب . ولكن بعد تولي إسماعيل صدقى رئاسة الوزراء (١٩٣٠- ١٩٣٣م) وما قامت به من إلغاء دستور الأمة (دستور ١٩٢٣م) وحكمها للبلاد حكما دكتاتوريًا، مستندًا إلى دستور أهدرت فيه سلطة الأمة لحساب سلطة الملك والسلطة التنفيذية (دستور ١٩٣٠)، فتابع طه حسين هذه التطورات بقلق وتشاؤم، واعتذر طه حسين عن تولية رئاسة تحرير صحيفة الشعب لتكون لسان حال حزب الشعب (الذى أسسه إسماعيل صدقي ، مبررًا ذلك أنه ليس من مصلحة الحكومة أن يعرف الناس أن الموظفين الحكومين يكتبون في صحيفتها)، ولا ينبغي لعميد كلية الآداب (وهو طه حسين) أن يسخر نفسه للكتابة في صحف الحكومة، فيتعرض بذلك لإزدراء الزملاء والطلاب جميعًا. وكان رد فعل النظام تجاه عميد الأدب العربى رفض وزارة المعارف ترقيته وعدم زيادة راتبه، ثم اتبعت الحكومة معه عدة أساليب سياسية أبت معها نفسه أن تخضع لها. وفى نهاية المطاف قامت بنقلة إلى وزارة المعارف فى وظيفة مساعد

لمراقبة التعليم الأولي بعد أن كان عميد لكلية الآداب، ولما حدثت مظاهرات غضبًا من هذا القرار، قامت الحكومة بإحالته إلى المعاش وفصله من العمل الحكومي .

وهكذا فقد طه حسين وظيفته، وصار بلا عمل وهو رجل لا يملك شيئًا ، لذلك شرع فى كتابة مقالات سياسية فى صحيفته القديمة "السياسة"، متحررًا من قيود الوظيفة، وبدأ يكتب أيضًا مقالاته السياسية فى صحيفة حزب الأحرار الدستوريين، وكانت وزارة صدقي ونظامه السياسي موضوع مقالاته، فهاجم دكتاتوريته ودستوره وبرلمانه وحزبه وسياسته ووزارته بدأب وصبر شديدين ، وكان من الواضح أن محنة طه حسين كان لها بعض الفائدة، فقد صنعت له شعبية كبيرة وتشتهر بموافقة الطلبة ضد طغيان نظام صدقي، وخلف تراثًا من مقالات السياسية على درجة كبيرة من الأهمية، وفى هذة الفترة بدأ طه حسين يبرز كشخصية شعبية تهتز لها وجدان الجماهير، بعد أن كان مجرد أستاذ وعالم جليل فى العشرينيات، فقد اقتنع طه حسين بضرورة أن ينتقل من معسكر الصفوة عن الجماهير إلى معسكر الجماهير العريضة ، خاصة بعد أن رأى أن حزب الأحرار الدستوريين، قد فقد كثيرًا بذهاب السياسيين المستنيرين المتميزين بالعقل والثقافة ، ليتبقى فيه من تميز بالحسب والمال، ومن هنا بدأ طه حسين يميل إلى حزب الوفد ، وبدأ يكتب فى جريدة الوفد

وتطور موقف طه حسين الفكري وانتقل من الدعوة إلى مجرد التجريد فى الفكر إلى دعوة اخرى هى التجديد فى المجتمع نفسه، خطاب بعد ذلك بتعميم التعليم ومجانيته، وطالب برفع الظلم عن الطبقات الشعبية ، فأصبح هكذا من قادة التغير الاجتماعي، وهذا التغيير تلقى - كما يذكر د.أحمد - مع أعمق معانى التغيير الفكرى وأكثرها أصالة وجدية، ولعله اكتشف فى هذه المرحلة من حياته أن الفكر المجدد الحر لا يستطيع أن يعيش مستريح الضمير بين شعب جاهل فقير متأخر، ومن هنا بدأ يخوض معاركه وسط الجماهير ومن أجلها، والذين كان كثير منهم من الوفديين .

ويلاحظ المؤلف أن ارتباط طه حسين بحزب الوفد وقيادته وصحافته حينذاك، لم يكن يعني عضويته فيه أو أنه أصبح أحد كوادره، ولا أراد الوفد منه ذلك، فحسبه أن يكتب فى صحيفته وعلى هدي مبادئه، وهو الأهم من العضوية بمعناها المحدد. ولعل طه حسين اكتفى أيضًا فى علاقته بالحزب بصلاته وعلاقاته الشخصية مع زعمائه، فضلاً عن أن صحيفة الوفد واسعة الانتشار ستتيح له التعبير عن مواقفه وأفكاره لدى قاعدة جماهرية واسعة، صار يحفل بها ويهتم لها، كما أن عمله المنتظم في الصحيفة ستتيح له قدرًا من الاستقرار المادي الذي يبتغيه، وحتى حين اختلف مع حافظ عوض رئيس التحرير، واستقال من صحيفة كوكب الشرق وبدأ يحرر فى صحيفة الرأي، واستمر طه

حسين في وزارة الوفد وتبنى سياسته، حتى عاد إلى الجامعة، ولكن استمر في علاقته بالحزب مما هيأ له تولي وزارة المعارف فى وزارة الوفد مصطفى النحاس الأخيرة (١٩٥٠- ١٩٥٢م) .

وفى الفصل الثالث المعنون بـ "طه حسين وثورة يوليو: بين الرجاء واليأس"، يتناول الكاتب – كما يتضح من عنوان الفصل – رأي طه حسين فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، وتطور رأيه في البداية من الرجاء حتى اليأس.

وينوه د.أحمد زكريا الشلق إلى أن موضوع دراسته هذه تتصل بتطورات "طه حسين" نفسه، منها أنه عاش حياة طويلة وحافلة ومن الطبيعي أن ننظر إلى طبيعة هذه الحياة فى تحولاتها المختلفة، في ضوء ثوابتها ومتغيراتها على حد سواء، وعلى ذلك لا ينبغي أن نصدر أحكامًا تتناول مرحلة من مراحل هذه الحياة الممتدة والخصيبة دون وعي ببقية المراحل الأخرى.

وأيضًا فإننا ندرس إنسانًا تتغير أساليبه ولهجته وطبيعة نشاطه من مرحلة عمرية إلى أخرى، ولا يعد ما سبق تبريرًا للتحولات أو التماسًا للمعذرة، وإنما يعني تفهم أن لكل مرحلة قدراتها وطاقاتها، وأيضًا متطلباتها وطبيعتها. ويرتبط هذا أيضًا بتاريخ ثورة يوليو، حيث قامت وقد بلغ طه حسين الثالثة والستين من عمره، أى أنه قد تأهب لمغادرة الكهولة واستقبال الشيخوخة بعد أن أثخنته جراح معارك إنسانية فكرية وسياسية صعبة.

كان طه حسين خلال الأربعينيات يعيش أزمة مصر السياسية والاجتماعية بكل كيانه، فكانت مقالاته التى نُشرت خلال هذه المرحلة من حياته تطالب الحكومات المتعاقبة بضرورة التصدي للأزمة الاجتماعية، وتتحدث عن فساد الأوضاع الاجتماعية، وعن حاجة المواطنين إلى العدل وإلى الحياة الكريمة، كما كان يطالب بتعميم التعليم ومجانيته وبالرعاية الصحية ورفع الظلم عن الطبقات الشعبية.

وعندما قامت الثورة، كان طه حسين يصطاف في شمال إيطاليا في انتظار انعقاد مؤتمر لليونسكو ليمثل فيه بلاده، ثم يعود إلى مصر، وعندما علم بقيام الثورة فرح كثيرًا وكتب مشيدًا بعزل الملك فاروق، وبمصر التى ضربت للعالم الحديث مثلاً رائعًا بثورتها، التى جمعت بين الهدوء والوقار وبين العنف الحازم الذي يرسل ملكًا إلى منفاه دون قطرة دم، ودون أن تخرج عن طور الحلم والحذر الشديد، وعبر عن رجائه في أن هذه الثورة المباركة التى ردت إلى مصر كرامتها، قد ردت إلى المصريين ثقتهم بوطنهم. وأشاد طه حسين كذلك بالقائد العظيم "محمد نجيب" الذي غير حياة مصر في أيام قلائل، فرد إليها شرفها وكرامتها.

لقد احتفى طه حسين بالثورة ورحب بها وأيدها مثل جموع الشعب التي عانت من العهد القديم واستبشرت خيرًا بالثورة، والتى

اتخذت إجراءات عديدة أكسبتها المزيد من التأييد الشرعى، خاصةً خلال شهورها الأولى .. ولم يترك العميد فرصة إلا وعبر فيها عن سعادته بما اقتنع به من قرارات الثورة، وطالب الشعب بأن يتجاوب معها. وهكذا تفاعل طه حسين مع قضايا الثورة وأخذ يهيئ لها سبيل الرشاد والنجاح.

ظهرت معظم كتابات طه حسين السياسية عن ثورة يوليو خلال الاثنتي عشرة سنة الأولى من تاريخ الثورة، أي خلال الفترة (١٩٥٢- ١٩٦٤م)، وهي الفترة التى حفلت بالإنجازات الوطنية، رغم بعض الأخطاء والسلبيات، وقد أشاد فيها طه حسين – كما سبق الذكر – بإنجازات هذه الثورة. ولكن فى الفترة التالية حتى وفاته (١٩٦٤- ١٩٧٣م) بلغ فيها الخامسة والسبعين من عمره، وكانت فترة مرض وشيخوخة، ولم تكن فترة نشاط أدبي، إلا بعض المقالات والرسائل الصغيرة. ولم تكن علاقات وطيدة أو خاصة تربطه بقادة الثورة، باستثناء محاولاته مع آخرين للتوفيق بين قيادة الثورة وزعماء الوفد فى بدايات الثورة وقبل إلغاء الأحزاب وقد أكرمته الدولة حينذاك فمنحته جائزتها التقديرية عام ١٩٥٨م، ومنحه الرئيس جمال عبد الناصر قلادة النيل عام (١٩٦٥م).

ولكن لم يمنع هذا من أن ينقد طه حسين الدولة أو يتجاهل الحديث عن أحد سياساتها أو أفكارها، فلم يكتب طه حسين شيئًا عن مبادئ الثورة الست المشهورة، والتى اُتخذت كوثيقة أولية تستند إليها قيادة الثورة كبرنامج تسعى لتنفيذه منذ قيامها. وعندما أصدر جمال عبد الناصر كتابه الشهير "فلسفة الثورة"، والذى طرح فيه أفكارًا مهمة بالنسبة للثورة ومسيرتها، تجاهل العميد الكتابة عنه، ولم يناقش ما قدمه الكتاب من رؤى وطروحات.

وعندما أعلن الرئيس عبد الناصر دستور ١٩٥٦م، لم نجد مقالاً لطه حسين يشير إلى هذا الدستور من قريب أو من بعيد، خاصةً بعد أن وأدت قيادة الثورة مشروع دستور لجنة الخمسين، التى كان طه حسين عضوا بها، ذلك المشروع الذى رأى طارق البشرى أن واضعيه استهدفوا إقصاء رجال ٢٣ يوليو عن المشاركة فى السلطة وإبعاد المؤسسة العسكرية عن أن يكون لها دور فى العملية السياسية.

وصمت طه حسين كذلك تجاه التنظيمات السياسية الشعبية التى شكلتها قيادة الثورة عقب إلغاء الأحزاب السياسية لعدم اقتناعه بها ولا بالشعارات التى أطلقتها. وعندما صدر الميثاق الوطني فى مايو (١٩٦٢م)، كتب العميد مقالة عبر فيها عن رأيه فيه، وبالرغم من وصفه بأنه "بحث رائع عميق" وأشاد بالرئيس عبد الناصر الذى استطاع إنجازه برغم أعبائه الجسام، ولكنه رآه طويلاً "كتاب مفصل"، وإنه يجب أن يوجه للشعب على اختلاف طبقاته واختلاف مستويات

التعليم لديه، ولهذا يجب اختصاره وتبسيطه، ليكون برنامجًا موجزًا للحياة المصرية، والذي يستطيع كل إنسان أن يقرأه وأن يفهمه.

واعتمد طه حسين في نقده للميثاق على أن الرئيس عبد الناصر أكد فى الميثاق أن النقد ضرورة من ضرورات الحياة الناهضة، ولذلك نقد طه حسين أيضًا ما ذكره الرئيس من أن العلم للعلم في حد ذاته مسئولية لا تستطيع طاقاتنا الوطنية أن تتحمل أعباءها فى هذه المرحلة، فذكر طه حسين أن العلم للعلم تبعة نستطيع أن نحتملها في هذا الطور من أطوار حياتنا، ودعا إلى الاهتمام بمن يوقفون حياتهم على العلم، ورأى أنهم لن يكونوا إلا قلة على أية حال.

وفى الفصل الرابع، يتناول المؤلف اتجاهًا فكريًا محددًا من أفكار طه حسين .. انشغل به فكره وقلمه حينًا من الدهر، وظل مهمومًا به لأكثر من نصف قرن، وهو قضية التغريب وهى المسألة التى واجهت الفكر العربي الحديث منذ بدأ يصطدم بحضارة الغرب، ذلك الصدام الذي جعله يتخذ موقفًا من هذه الحضارة بالتحدى أو الاستجابة. وقد اهتم بهذه المسألة معظم مفكري النهضة والاستنارة بدءًا بجيل الطهطاوى والتونسي ومحمد عبده .. وحتى جيل أحمد لطفى السيد ومحمد كرد علي وطه حسين .. ما بين رافض للتجربة الأوروبية برمتها ويراها خطرًا على التراث والهوية الحضارية للعرب، ومن هو منبهر بتقدم الغرب وحضارته، داعيًا للارتماء في أحضانه أملاً في الفكاك من دائرة التخلف والجمود .. ومنهم من يأخذ من الاتجاهين السابقين بنصيب مختلف. وقد جمع طه حسين – خلال سنوات دراسته بالأزهر- ذخيرة هائلة من الأدب العربي، ولكن فى الوقت ذاته ظهرت خلالها بدايات قلقه وتمرده الفكري، الأمر الذى انتهى به إلى الانشقاق عن بيته الكبير.

خلال السنوات الأولى من العشرينيات، راح طه حسين يختبر مناهجه بمعالجة تراث الأدب العربي بروح جديدة، بينما كان يدرس تاريخ وآداب العصر الكلاسيكي الأوروبى ويكتب فيهما، مع متابعة إبداعات الثقافة المعاصرة بدأب واهتمام، كل ذلك كان يسير معه فى خط متوازٍ اقتناعا بوحدة التراث الإنساني، المستمد من الأصول اليونانية والذي ساهم فيه العرب بدورهم، وبلغ أقصى نضجه عند الأوروبيين المحدثين.

ونشر طه حسين كتابه الشهير "في الشعر الجاهلي"، والذي أثير حوله عاصفة من النقد والانتقادات والاتهامات، فأعاد طه حسين طبعه بعد أن حذف الفصل الذى أثار المعركة ، ولكنه نشر بعده عدة مقالات تحت عنوان "بين العلم والدين" والتي أكد فيها على أن الخصومة بين العلم والدين جوهرية وقديمة، ولا سبيل إلى إزالتها إلا أن ينسى كل منهما صاحبه نسيانًا تامًا.

ورغم ذلك، اشترك طه حسين عام (١٩٣٣م) في موجة معالجة الموضوعات الإسلامية (مثل العقاد وهيكل والحكيم وغيرهم)، والتى على أثرها نشر فى عام (١٩٣٥م) وحده نحو عشرين كتابًا عن الإسلام، وكان وراء هذه الظاهرة تدهور المادية الغربية وعجزها، ولجوء كنيستها إلى موجة عارمة من التبشير، بالإضافة إلى الفزع من الشيوعية مما دفع الجميع إلى الاعتصام بالعقائد واللوذ بالإسلام، وكان هذا التحول ظاهرة جماعية اشترك فيها طه حسين بكتابه "على هامش السيرة"، وعندما سئل طه حسين عن هذا التحول فى أواخر أيامه أجاب : هل كان واجبنا المقدس أن نترك هذه الموضوعات للمستشرقين؟ إن العلم ليس حكرًا عليهم ونحن أولى بتاريخنا منهم.

وخلال الأربعينيات وما تبقى من حياته، عاد طه حسين إلى توفيقية أستاذه محمد عبده، وعاد إلى الملاءمة والمواءمة.

أما الفصل الخامس ؛ فيتناول المؤلف كتاب طه حسين الشهير "مستقبل الثقافة فى مصر"، ولكنه يربط قراءته له بمشروع النهضة والهوية، وهذه الدراسة هي مراجعة لإسهام "حالة خاصة" - تتمثل فى طه حسين – في مشروع النهضة، من خلال كتابه "مستقبل الثقافة" الذى أصدره عام (١٩٣٨م)، متوجًا به – آنذاك – مرحلة من حياته الفكرية قوامها ربع قرن من الزمان، أي منذ تخرجه من الجامعة المصرية بأول دكتوراه تمنحها عام (١٩١٤م). ويؤكد د.أحمد زكريا الشلق إننا لا نستطيع أن نفصل الكتاب عن كل ما فكر فيه طه حسين أو كتب عنه منذ اشتغل بشئون الفكر والتعليم، كما لا يمكن فصل مشروعه نفسه، فى مجاله، عن مشروع مصر لاستقلالها ونهضتها ، وقد اعترف العميد نفسه بهذه الحقيقة وهو يقدم لكتابه "مستقبل الثقافة".

بعد توقيع مصر لمعاهدة (١٩٣٦م) مع بريطانيا ثم اتفاق مونترو عام (١٩٣٧م) الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية مع الدول الأوروبية، اعتقد كثيرون ومنهم طه حسين أن مصر تستقبل عهدًا جديدًا من تاريخها، إن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة. وقد دفعت هذه التطورات فريقًا من طلبة الجامعة إلى أن يسألوا كبار المفكرين المصريين عن واجب مصر بعد المعاهدة، وقد تحدث إليهم طه حسين ضمن من تحدثوا، ولكنه لم يقنع بما قال، واستقر فى نفسه أن يكتب بالتفصيل عن واجب مصر فى الثقافة والتعليم والذي هو أعظم خطرًا وأشد تعقيدًا مما تحدث به قبل ذلك، ولهذا قام بكتابة كتابه الشهير "مستقبل الثقافة". وهناك سبب آخر لتأليفه هذا الكتاب، حيث أوفدته وزارة المعارف لتمثيلها فى مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى فى باريس عام (١٩٣٧م)، كما انتدب لتمثيل الجامعة فى مؤتمر التعليم العالي في باريس

أيضًا وفى العام ذاته، وطُلب منه تقريران عن هذين المؤتمرين، ولكنه لم يفعل ، وأسرّ فى نفسه أن ينجز ذلك خلال تأليف كتابه، ليتوجه بكتابه إلى الشباب والمسئولين فى آن واحد ، متضمنًا آراءه وأفكاره حول مستقبل الثقافة والتعليم فى مصر، رآها طه حسين فرصة كذلك ليستكمل خطوط رؤيته لمشروع نهضة مصر، ويستكمل بها رسالته التى أخذها على عاتقه. ويرى د. أحمد أن الكتاب هكذا ليس كتابًا علميًا أو تاريخيًا بالمعنى المألوف، وإنما هو بيان مطول، وبرنامج يشخص الداء ويقترح الدواء، ويرسم مستقبل الثقافة والتعليم لمصر المعاصرة، كأساس لنهضتها وتحديثها فى لغة خطاب فكرى مباشر واضح وجلى.

ولم يبدأ طه حسين تنظيم أفكاره فى الكتاب من فراغ، وإنما باستجماع أفكاره السابقة والتى عبر عنها بشكل أو بآخر في مؤلفاته المهمة خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وبدأ في تطويرها في كتابه الجديد لتخرج في نسيج فكري متكامل، يحدد المنطلقات ويقدم رؤيته للنهضة وللتحديث. وقد احتوى الكتاب على قسمين أساسيين من ناحية موضوعاته ؛ أولهما يتناول قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري، وثانيهما يتناول قضايا التعليم والثقافة فى مصر، والملاحظ أنه نجح فى تشخيصها، وفى تصوير اضطراب أساليبها فى مصر، الأمر الذى يؤثر فى عقول الناشئة والشباب، فطالب فى غير تردد بأن تتوحد الأساليب وأن تتجدد لتنمية الشعور الوطني، وأهاب بالدولة أن تتحمل مسئوليتها كاملة بالإشراف على جميع مراحل التعليم العام. وإذا كان قد دعا إلى إلزامية التعليم ومجانيته فى بعض مراحله الأولى، فإنه عندما تولى وزارة المعارف (١٩٥٠م) تجاوز دعوته تلك عمليًا بجعل التعليم العام مجانيًا. وبالرغم من ذلك، فإن ثمة قضايا طرحها طه حسين لم يتجاوزها الزمن، وكأن آراءه وأفكاره بشأنها عام ١٩٣٨م، ما زالت تصلح لزماننا.

وطه حسين فى كتابه هذا كان يردد فكرة الندية لأوروبا المشاركة في الحضارة الإنسانية، خيرها وشرها، حتى وإن كانت هذه الحضارة الإنسانية العامة، ترتدى الآن رداء أوروبيًا، وتُنطق بحروف لاتينية. كما أكد العميد كذلك على مفهوم الأخذ بأسباب القوة، وبالأسس التي قامت عليها الحضارة، والحفاظ على الذات من الفناء وإلى فكرة الخصوصية الثقافية، وإن كانت جزءًا من العمومية الإنسانية، فضلاً عن تشديده على فكرة مقاومة أوروبا والثبات لها. ويرى المؤلف أن هذه الأفكار، إن لم تكن في مجملها جديدة على الفكر العربي، إلا أن طه حسين نجح في استجماعها في نسيج فكري متكامل، كمشروع للنهضة، على نحو ما صاغه، وإن لم تتوازن وتتعادل فيه علاقات المشروع ببعضها البعض : الإسلام وعلاقته بالمدنية الحديثة (الغرب الحضاري) فبدا طه

حسين كمن يحاول نزع مصر من أمتها العربية الإسلامية ، لتوجيه انتمائها وتقدمها وجهة "بحر متوسطية" تلحقها بأوروبا وحضارتها، بل لقد أشار إشارة عابرة إلى أن الشرق العربي ذاته له نفس الانتماء ويتجه الوجهة ذاتها.

وبالرغم من إشارة طه حسين إلى الهوية القومية والثقافية، وضرورة الحفاظ عليها، إلا أن ذلك لم يلق نفس التأكيد والاهتمام بعناصرها وأصولها، على نحو ما فعل بالنسبة لحضارة الغرب، فانشغل بتوجيه الانتماء أكثر من تأكيده على تلك الخصوصية فى مواجهة أوروبا، وظهر تركيزه على فكرة صلات مصر وارتباطها القديم ببلاد اليونان، وتأثيرها فيها وتأثرها بها، ليثبت فى نهاية الأمر – تاريخيًا – أن هذه الصلات والمؤثرات أثبت من صلتها بالعروبة والإسلام، وليبرر دعوته بضرورة استئناف هذه الصلات القديمة، فى شكلها الأوروبى الحديث، من خلال عامل جغرافي هو البحر المتوسط.

ويعرض الكاتب فى الفصل السادس والأخير لكتاب "أوراق طه حسين ومراسلاته" الذي صدر في عامي (٢٠٠٥، ٢٠٠٧م) في جزئين من دار الكتب المصرية، وهو يضم الأوراق الخاصة بالعميد وكذلك المراسلات التي تبادلها مع أصدقائه خلال الفترة (١٩٢٥- ١٩٧٢م)، وهي جزء من أوراق طه حسين الخاصة التى قدمتها أسرته إلى دار الوثائق القومية لتكون متاحة للدارسين والمثقفين جميعًا، ولتنشرها الدار على نحو ما أشرنا، وهو تقليد أتبعته بعض أسر كبار رجال الدولة والأدباء والعلماء، مثل سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم. ولم تقف عناية نشر تراث طه حسين على مجهودات دار الكتب، ولكن كانت هناك جهود سابقة فى هذا المضمار، قام بها بعض الكتّاب والصحفيين، ممن حصلوا على صور لمجموعات منها، ونشروا اجزاء منها فى أعمال قائمة بذاتها، مثل نبيل فرج وإبراهيم عبد العزيز وغيرهما.

ويلاحظ أن طه حسين لم يحتفظ بهذه الأوراق والمراسلات إلا منذ عام (١٩٢٥م)، بعد أن شارف على الأربعين من عمره ؛ حيث صار كاتبًا مرموقًا لديه قاعدة واسعة من القراء، وبعد تعيينه أستاذا – فى العام ذاته – بالجامعة المصرية، وشرع يستعد لخوض معاركه الفكرية الكبيرة. إذن أصبح طه حسين شخصية عامة تمتلك رؤية ومشروعًا فكريًا يناضل من أجله، ومن ثم باتت أوراقه، بل ومسودات مقالاته ومراسلاته على جانب كبير من الأهمية، ومن هنا تكمن أهمية الإحتفاظ بها.

ويثمن الكاتب العمل الذي أصدرته دار الكتب بأن الأعمال السابقة اعتمدت على انتقاء رسائل الشخصيات الأكثر شهرة فى علم الأدب والسياسة والفن والقانون، ممن

تراسلوا مع طه حسين، بالإضافة إلى أنها لم تتضمن الرسائل التى أرسلها طه حسين نفسه إلى هذه الشخصيات، كما أنها لم تنشر شيئًا من خطاباته وتقاريره إلى المسئولين أو مسودات بعض المقالات والمحاضرات العامة والأحاديث الإذاعية له، وهى رسائل وأوراق على جانب كبير من الأهمية سواء بموضوعاتها أو بمن أُرسلت إليه. ولهذا كان العمل الذى أصدرته دار الكتب يمثل عملاً شاملاً ومتكاملاً لنشر هذه الأوراق جميعًا، في عمل تأسيسي، تبنى بالدرجة الأولى نشر هذه الأصول في سياقها التاريخي وتتابعها الزمنى، لتشكل مصدرًا للباحثين، بعد أن زودت بتراجم مختصرة للشخصيات التي تراسلت مع طه حسين، كما زودت بإيضاحات لبعض الوقائع والمناسبات الواردة فى سياق المراسلات، أُلحقت جميعًا بالهوامش حفاظًا على النص الأصلى، ليكون متاحًا لكل باحث ومثقف حيث يجد فيه بغيته من الفائدة والمتعة.

وتستمد هذه الأوراق قيمتها، ليست فقط من كونها وثائق أدبية بالغة القيمة والأهمية، وإنما لمصداقيتها باعتبارها كُتبت بتلقائية - من رجال لم يكونوا قد بلغوا مرحلة الشهرة بعد – تجعل هذه الأوراق بريئة من كل قصد يستهدفه النشر، ولذلك تشكل هذا الأوراق مصدرًا مهمًا لدراسة طه حسين وآثاره، وأيضًا لدراسة التاريخ الثقافي لمصر الحديثة، وهى تمثل كنزًا لنقاد الأدب ومؤرخيه، كما أنها تقدم رؤى فكرية ومشاعر إنسانية فياضة وأدبًا رفيعًا. وهذه المراسلات أيضًا تجعلنا نعيش مع رجل ملأ عصره، ولا يزال يثير الجدل بعد رحيله، فنراه فى حالات القوة وفي حالات الضعف، ونشاهده في حالات التوافق وحالات التناقض، مما يجعلنا نحبه أحيانًا، ونغضب منه أحيانًا أخرى، نقترب منه بعض الوقت، نبتعد عنه بعض الوقت. وأيضًا تعد هذه الأوراق الخاصة والمراسلات في سياقها الزمني، تقدم "سيرة ذاتية موازية" بما تضمنته من مادة خصبة عن كثير من المواقف والآراء التي تبادلها العميد مع عدد من الشخصيات.

تكشف لنا قراءة هذه الأوراق عن جوانب خصبة من حياة طه حسين، ذات بعد إنساني توضح ليس فقط ذلك النبل والرقي الذي يتضح منها، وإنما تكشف عن ارتباط ذلك بالعمل والتكوين العلمي والثقافي له ولطلابه، ويصب على المدى البعيد في مشروعه لنهضة الوطن ورقيه.

كان طه حسين - كما تكشف الرسائل والأوراق - مدافعًا عنيدًا شديد المراس عن العدالة الاجتماعية، وعن الحرية في كل صورها، حرية العلم، والفكر والنشر، يمارسها ويحض تلاميذه وأصدقائه على ممارستها، وأثبت أنه كان شجاعًا بعيد النظر قوى الإرادة، يضحى بمصالحه الخاصة في سبيل المصلحة العامة، وأنه كان مستقلاً في

فكره، حتى وهو يعمل من خلال وظائفه الحكومية، التي كان غالبًا ما كان يستغلها لتحقيق سياسته وأهدافه، ولم يكن أسيرًا أو خاضعًا لها.

وتضم هذه المراسلات رسائل من عدد من القراء العاديين أرسلوها إلى طه حسين، وقد احتفظ به طه حسين ضمن أوراقه ولم يتخلص منها وهي تحتوي على أصداء طبيعية وتلقائية لما كان يكتبه وينشره، فضلاً عن تعبيرها عن مشاعر إنسانية فياضة، فضلاً عن أن بعضها يطلب منه المساعدة والدعم، وهناك رسائل أخرى من الأدباء العرب، بعضهم يستطلع رأيه فيما يكتبونه ، وبعضهم يطلب مساعدته لنشر أعمالهم في مصر والبعض الآخر يعلق ناقدًا على بعض كتابات طه حسين، وكل هذه الرسائل تؤكد التواصل الحميم الذى حرص عليه العميد مع الأدباء والمثقفين العرب، إعلاء لقيمة الثقافة والأدب ودورهما فى دعم العروبة .. كما تكشف هذه الرسائل عن جوانب من العلاقات الثقافية بين مصر وشقيقاتها العربيات.

ويلاحظ المؤلف أن طه حسين أطلق العنان لنفسه للحديث عن انطباعات تنطوي على قدر كبير من المجاملة، خاصةً وأنه نبّه في نهاية محاضراته إلى أن لا يجب أن يكون حديثه هذا تاريخًا، فالتاريخ علم موثوق، له أصوله ومنهجه.

وأخيرًا، فنحن أمام عمل مهم، طرح فيه د. أحمد زكريا الشّلق رأيه فى شخصية عميد الأدب العربى طه حسين، ويلقى الضوء – بالتحليل العلمى – على أفكار طه حسين من خلال قراءة لكتبه العديدة.

ويهم هذا العمل الضخم المهتمين بالفكر العربى عامةً والمصرى خاصةً، وبتاريخ السياسة المصرية، بل ويقدم قراءة مبسطة هادفة لمن لم يقرأ كتب طه حسين بعد. ولهذا فالكتاب لا غنى عنه فى المكتبات العامة والمكتبات الأكاديمية التاريخية والسياسية.